Self-denail about Malamatiyyah

Dr. Maysaa Ali [*]
Amgad shami [**]

(Received 12 / 9 / 2023. Accepted 11 / 12 / 2023)

□ ABSTRACT □

In a certain time around the middle of the thirteenth century of the Prphit migration. Malamaty was existed, its people were distanced from those psychos whom we can find every once while during history. Those who used to exaggerate to blame themselves for smaller things before the diggers and unwillingly which refers to religion customs, or their psycholigisalasel and social composition. That made them considered as psychos and nutts. But Malamatists were different who started blaming themselves in order to improve it and get the best of it. They were effected by the idea that considers the human self as the resource of all evil act and thoughts. They were attracted to youthful believers in religion history .As well as they were related somehow to Sufism which they Took its name then they have applied to.

they have shared the Sufism one of its major principals especially what is called self-desire resistance. But malamatist were different from sufists by denying human self in order to fix it and get the best of it, not to consider reunion with the Devin soul of God or caring about mortality.

Key words: Malamaty – youth- self denial

Copyright **:**Tishreen University journal-Syria, The authors retain the copyright under a CC BY-NC-SA 04

[*] **Assistant Professor, Department Of Philosophy, Faculty Of Arts And Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

[**]**postgraduate student, Department Of Philosophy, Faculty Of Arts And Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

إنكار النفس عند الملامتية

د. ميساء علي*

أمجد شامي**

(تاريخ الإيداع 12 / 9 / 2023. قبل للنشر في 11 / 12 / 2023)

□ ملخّص □

في كل زمان نجد أناس يبالغون في ملامة أنفسهم على الصغيرة قبل الكبيرة عن غير وعي وبدون إرادة وهذا راجع لمعتقداتهم الدينية وتكوينهم النفسي والاجتماعي، هؤلاء يدخلون في عداد المرضى النفسيين، غير أنَّ ما يثير العجب وجود جماعة من الناس في حقبة معينة تعود إلى منتصف القرن الثالث عشر الهجري قد امتهنوا ذلك عن إرادة وتصميم منطلقين من احتقارهم للنفس الإنسانية باعتبارها مصدر الشرور ومكمن الخديعة لا يصدر عنها إلا الخبيث، ولا تنطوي إلا على الدنيء، قد سموا أنفسهم بالملامتية والتي تربطهم علاقة وثيقة بالفتوّة هؤلاء الفتيان الزهاد (الشباب المؤمن)، فقد أخذوا من التصوف اسمه فنسبوا إليه واشتركوا مع الصوفية بأحد أركانها وهو محاربة النفس غير أنهم افترقوا عنهم في جعلهم إنكار النفس بقصد إصلاحها غايتهم وهدفهم الرئيسي فلا فناء يعنيهم ولا وصال ولا اتحاد يسعون إليه.

الكلمات المفتاحية: الملامتية، الفتوّة، إنكار النفس.

حقوق النشر :مجلة جامعة تشرين- سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص CC BY-NC-SA 04

***مدرس-قسم الفلسفة-كلية الآداب والعلوم الإنسانية-جامعة تشرين -اللاذقية-سورية.**

****طالب ماجستير-قسم الفلسفة-كلية الآداب والعلوم الإنسانية-جامعة تشرين-اللاذقية-سورية.**

مقدمة:

يعد موضوع التصوف من المواضيع البارزة التي شغلت حيزاً واسعاً في الفكر الإسلامي، فمن الصعب تحديد فواصل زمنية بين حركتي الزهد والتصوف في الإسلام، لأن التطورات الفكرية بطبيعتها لا تخضع للتحديد الزمني الصارم، فمنذ أوائل القرن الثالث أصبح الزهاد في هذه الفترة يسمَّون بالصوفية. فقد انتشر التصوف كحركة دينية في العالم الإسلامي وبدأ كرد فعل للانغماس في الترف الحضاري الذي ظهر في ذلك الوقت، حيث تجلى في بداية الأمر على شكل نزعات فردية تدعو إلى الزهد والعبادة، ومن ثم تطورت تلك النزعات حتى أصبحت طرق مميزة معروفة باسم الصوفية.

إن المتتبع لسير أحداث الزهد يرى أنَّ هناك طائفة من العباد آثروا العزلة وعدم الاختلاط بالناس فشددوا على أنفسهم في العبادة على نحو لم يُعهَد من قبل، فلم يبقى مفهوم الزهد على حاله السابق من اعتزال الناس والحياة، وإنّما تطور بشكل عام وعلى وجه الخصوص في الكوفة والبصرة وأخذ منحى جديد ، ليصبح الزهد حالة داخلية في الإنسان يتعايش معها دون أنَّ يهجر الحياة، فكان العرب الذين استوطنوا البصرة من بني تميم مجبولين على النقد ولا يؤمنون إلا بالواقع، بينما في الكوفة كان لديهم نزعة مثالية بطبيعتها، هذا التطور الحاصل في الزهد وانتقاله إلى ما يُعرف بالتصوف نتج عنه ظهور مدرسة نيسابور حيث كانت من أهم المدارس التي ظهرت في ذلك الوقت وكانت على صلة بمدرسة بغداد عن طريق الزيارة والتلمذة والصحبة، ويقوم تصوف تلك المدرسة على عاملين أساسيين هما: الملامة والفتوّة، غير أنَّ نشأة الملامتية بنيسابور لم تكن على صلة بالحركات الصوفية التي سبقتها بل اتصلت بحركة أخرى ليست لها صبغة صوفية ولا دينية وهذه هي حركة الفتوّة.

مثّلت الملامتية نزعة خاصة في التصوف الإسلامي واتجهت اتجاهاً خاصاً في النظر إلى النفس الإنسانية وأعمالها وتقديرها، فلا يكترث الملامتي بمدح الأفعال الخيرة بقدر يقظته إلى شرار الأفعال وخبثها. حيث احتل لوم النفس ورؤية تقصيرها مكان الصدارة في عقيدته الصوفية، فجلّ ما يعني الملامتية هو التخلص من الخلق السيء فنراها تسرف إلى حد المبالغة في تسليط الضوء على مساوئ الأفعال لدرجة أنها تضع نفسها موضع الاتهام في كل الأحوال قلا تستحسن شيء منها وإنْ كان خيراً خوفاً على النفس من الزهو والكِبَر وهما آفتان تودي بالمرء الى مهاوي الردى وخسارة الآخرة كما يتميز مسلك الملامتية بالتطبيق العملي لجميع أفكارهم حول النفس وهذا يرفع من شأنهم من حيث أنهم أصحاب أفعال لا أصحاب أقوال، فهم بذلك يعكسون صورة واقعية وحيوية من صور الزهد الحقيقية.

وبناءً على ذلك فإن الملامتية مجموعة من الآداب والتي تقوم على مجاهدة النفس تؤدي في نهاية المطاف إلى إنكارها ليكون الإنسان إنساناً على الحقيقة، مما يبرر موقفهم في أنهم رفعوا أنفسهم إلى مقام عالٍ في الولاية لا يدانيهم فيه أحد، لأن الولاية في نظر الصوفية بشكل عام مرتبة عالية وهبية لا يصل إليها الصوفي إلا بمنّة إلهية يمنحها الله لمن يشاء من عباده، فقد يكون الولي على حظٍ كبيرٍ من العبادات والزهد والمعرفة ولكن لا يبلغها، فالولاية هي : ((قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه، وذلك بتولي الحق إياه حتى يبلغه غاية مقام القرب والتمكن)) ((1)).

ولما كان التصوف لدى الكثيرين وسيلة أساسية في التعبير عن الفكر والوجود، كان ذلك سبباً لتعدد ظهور الفرق المختلفة في وجهات النظر وإنْ كانت بالمجل تتجه إلى الله وتعمل على نشر المبادئ الأخلاقية، والملامتية ماهي إلا واحدة من هذه الفرق التي ساهمت في التعبير عن أفكارها التنويرية من خلال إنكار النفس.

---

[1]- القاشاني، عبد الرزاق. *معجم اصطلاحات الصوفية*، تحقيق وتقديم: عبد العال شاهين، دار المناد للطبع والنشر والتوزيع، 1992، ص 79.

ولكن يبقى التساؤل المطروح ماهي الملامتية، وماصلتها بالفتوّة، وماهي فلسفة النفس عندهم؟

أهمية البحث وأهدافه

ترجع أهمية البحث إلى فكرته التي تركز على النفس وإنكارها وأعتقد أنه موضوع راهن مهما تقادم الزمن عليه لأن النفس الإنسانية لاتزال محط جدل الإنسانية على اختلاف مجالاتها البحثية واهتمامنا بالنفس يجب أنَّ يكون في عصرنا التكنولوجي أكثر من غيره لأنه الزمن الذي بدأ فيه تشظي النفس وانحرافها في أعلى مستوياته وتفوق عنصر المادة على الروح وبما أننا سنعرض أهم الأفكار حول إنكار النفس عند طائفة تنتمي إلى الصوفية وهي الملامتية كان للبحث جملة من الأهداف وهي : توضيح حقيقة إنكار النفس عند الملامتية و التي تختلف عن الفناء عند الصوفية كما أنَّ ما يثير الدهشة هو الهدف السامي الذي من المفترض أنَّ يتحقق كنتيجة لإنكار النفس عند الملامتية وهو تحقيق الذات والذي يتم بمحو النفس وفي ذلك مفارقة كبيرة ولماذا ارتبطت الملامتية بالفتوّة وماهي نقاط التشابه والاختلاف فيما بينهما.

منهجية البحث:

اتبعت في هذه الدراسة المنهج التاريخي من أجل تتبع الملامتية من بداية ظهورها والشروط التاريخية التي أفرزتها ومراحل تطورها ووضع أفكارها في ميزان النقد والتحليل لذلك استعنت أيضاً بالمنهج التحليلي المقارن لتحليل أقوالهم وطريقتهم في التصوف وعقد مقارنات بين الملامتية والصوفية بشكل عام، بالإضافة إلى المنهج الوصفي الذي يسهم في وصف هذه الفرقة بالإضافة إلى المنهج التأويلي الذي سيكون عوناً لنا في محاولة تأويل أقوال الملامتية في إنكار النفس بحيث نقدم صورة كاملة واضحة عن تصوف هذه الفرقة ودورها في تطور مفهوم النفس.

المناقشة والنتائج:

يجيب البحث عن مجموعة من التساؤلات التي شكلت محور الدراسة وهي:

متى ظهرت الملامتية وكيف وماهي أبرز معتقداتها؟

ما صلة الفتوّة بالملامتية؟

ماهي حقيقة إنكار النفس عند الملامتية؟

ماهي النتائج التي تمخضت عن البحث.

أولاً: النشأة التاريخية للملامتية:

ظهرت فرقة من الصوفية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري في مدينة نيسابور أطلق عليهم اسم الملامتية، فقد أسسها مجموعة من الرجال الصادقين الذين تميزوا في تاريخ التصوف الإسلامي بالورع والتقوى الحقيقيين وقوة الدين ومحاربة الأفراط والتفريط، إلى جانب تميزهم بقوة العاطفة الدينية وجهادهم العنيف للنفس ومحاربتها ومحاسبتها على كل ما فرط منها وما يحتمل أنَّ يفرط ، اتسمت الملامتية بطابع زهدي ومسلك علمي، حيث كان جلَ تركيزها على النفس بغية تخليصها من الشرور وتنقيتها لتكون على أهبة الاستعداد في طريق الزهد والتقشف ،

((ومن قبل كان الهجويري قد سمَى أصحابها في الكلام عن فرق الصوفية الفرقة القصارية نسبة إلى شيخهم الأول أبي صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار)) ((2)) ، فهي فرقة بموجهات زهدية أكثر من كونها صوفية.

ولابد من الإشارة إلى أنَّ الملامتية تمثل صورة من صور الزهد الغالبة في ذلك العهد ، حيث يمكننا أنَّ نطالع الفرق بصورة واضحة بين نهج هذه الطريقة ونهج التصوف: حيث يتجلى زهد هذه الطريقة في أقصى معانيه بإنكار النفس عن إرادة وقصد ووعي على غير الصوفية الذي يأتي عندهم إنكار النفس لحظي وُيعبَّر عنه بالمحو أو الفناء والأهم من ذلك أنه يأتي كنتيجة إلى انعدام الإحساس والشعور وهي حالة لا واعية وغير إرادية تأتي نتيجة لكشف وشهود قوي لا طاقة للعقل على احتماله ولا قوة للنفس على احتضانه فيغيب عن أناه بالهو وهذا هو الاختلاف الأول ، أما الاختلاف الثاني: هو أنَّ الملامتية مسلك تكون السيادة فيه للعمل وليس للتأمل والشطح الصوفي*، بينما ينهمك الصوفيون في الجذب والمحو والحلول والسكر والتساكر فالصحو*، هذا ما جعلهم ينبذون كل مظاهر التصوف السابقة، والعمل على محاربة أفكارهم المتطرفة والمنحرفة عن طريق الدين القويم بحسب نظرتهم ، ومحاولتهم العودة بالزهد الإسلامي إلى سيرته الأولى التي لخصها القرآن الكريم بقوله تعالى: ((اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)) ((3)). وبتتبعنا لسيرة الزهد في الإسلام نرى أنه أسلوب حياة يتم من خلاله تحقيق إنسانية الإنسان الأخلاقية، ينطلق من الحياة ويدعو إلى ممارستها بطريقة تكفل له الفوز بنعيم الآخرة من دون التضحية بالحياة الدنيا التي يُفتَرض أنَّ تكون الوسيلة لبلوغ الغاية، بهذا المعنى يكون الامتناع عن ملذات الحياة والرغبات المادية ليس بالأمر المطلوب إطلاقاً، بل يكون الزهد في عدم الإفراط بمتاع الدنيا وملذاتها وضرورة الاعتدال.

وتأسيساً لذلك يتحقق الزهد من خلال برمجة النفس وتحسين قدرتها على اختيار ما يرتقي بها ويجاوزها، فالجرأة والشجاعة أنَّ تزهد فيما تملك، فهو الزهد الكامل، لأن قوة النفس تبرز هنا من خلال إرادتها الصلبة المنيعة في ممارستها الفعلية على عكس النفس عندما تزهد فيما لا تملك فهي بعيدة كل البعد عن التجربة فلا دليل على صدق إرادتها سوى قولها فقط، لذلك عرَف أحد الصوفية الزهد فقال: ((أنَّ تكون مُعرِضاً عما تملك، لا أنَّ تكون معرضاً عما لا تملك)) ((4)).

1-الهجويري. *كشف المحجوب*، دراسة وترجمة وتعليق: إسعاد عبد الهادي قنديل، تقديم: بديع جمعة، مصر: القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2007، ج 1، ص 259.

2-القرآن الكريم. سورة: الحديد، آية: 19.

***الشطح الصوفي: عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوته، وهاج بشدة غليانه وغلبته. انظر: الطوسي، السراج. *اللمع*، تحقيق: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى ببغداد، 1960، ص453.**

***الصحو: رجوع إلى الاحساس بعد غيبة بوارد قوي. انظر: القاشاني، عبد الرزاق. *معجم المصطلحات والإشارات الصوفية*، دراسة وتحقيق: سعيد عبد الفتاح، الهيئة المصرية العامة للكتب، الطبعة الثالثة، 2007، ج2، ص55.**

1-التفتازاني، أبو الوفا الغنيمي. *مدخل إلى التصوف الإسلامي*، مصر: القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، 1976، ص 67.

2-السهروردي. *عوارف المعارف*، تحقيق وضبط: أحمد عبد الرحيم السايح وتوفيق علي وهبة، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، 2006، م1، ص86.

3-القرآن الكريم. سورة: القيامة، آية: 2.

وناهيك عن أنَّ الزهد لا يعني الهجر التام للدنيا وإنما ترويض للنفس من خلال تهذيبها على القناعة والرضا ويكون ذلك من خلال التقليل من الملذات واستبعادها للجشع والطمع لأن النفس لديها الاستعداد لكل من الخير والشر معاً، فيكون احتمال استعدادها للشر مساوياً لاحتمال استعدادها للخير، أي لا خير مطلق في النفس الإنسانية. ويضاف إلى ذلك أنَّ النفس مفطورة على حب التملك والسيطرة وهذه الحقيقة تتعارض مع الزهد التي تسعى النفس إلى تحقيقه والذي لا ينتمي إلى طبيعة النفس الخاصة بأي صلة فهو تجربة تخوضها النقس بشكل يتفاعل ويتصارع فيها الداخل (نوازع النفس) مع الخارج (الدنيا ومفاتنها ومغرياتها).

و الملامتي هو خير من يتمسك بالزهد ويعمل به إلَّا أنّه يحرم على نفسه أنَّ يُظهِر عبادته وزهده وأنَّ يتكلم عن فضائل النفس وكمالاتها بقدر تكلمه عن عيوبها ورعونتها، وذلك أضحى واضحاً في الاسم الذي اختارته لنفسها تلك الطائفة من الصوفية ، فاسم الملامتية مشتق من الملامة التي هي بخع وتأنيب للنفس، فكما هو معروف بأن الملامتية هم قوم ثائرون على الكثير مما كان معترفاً به عند الصوفية ورجال الدين، لذلك ينبغي أنَّ نشير إلى أنَّ هذا الأسلوب كان له مبرراته مع نظام لم يرضوا عنه، فمن أجل ذلك أطلقوا على أنفسهم في مقابل الصوفية الذي كان يسمى به أهل العراق أولاً، واختص بهذا الاسم الملامتية أهل خرسان، يقول السهروردي صاحب عوارف المعارف: ((ولم يزل في خرسان منهم طائفة ومشايخ يمهدون أساسهم ويعرفونهم شروط حالهم، وقد رأينا في العراق من يسلك هذا المسلك، ولكن لم يشتهر بهذا الاسم، وقلما تتداول ألسنة أهل العراق هذا الاسم)) ((2)). فمن ناحية أخرى فليس من المستبعد أنَّ يكون اسم الملامتية مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً ببعض الآيات القرآنية التي جاء فيها ذكر لوم النفس، الملامتية لامت نفسها على كل ما صدر منها والآية الكريمة التي استدلوا بها أعلت من شأن النفس اللائمة لصاحبها وأيضاً المؤنبة والمحاسبة وهي في معتقدهم النفس الكاملة، وذلك في قوله تعالى: (((وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)) ((3)).

لم يكن لوم الدنياً يوماً هو هدفهم، بل كان همهم الوحيد النهي عن ذم الدنيا، وهذا كان واضحاً وجلياً عندما رأى أبو حفص النيسابوري بعض أصحابه وهو يذم الدنيا وأهلها، فقال: ((أظهرت ماكان سبيلك أنَّ تخفيه لا تجالسنا بعد هذه ولا تصاحبنا)) ((5))، فهدفهم أنَّ يخفوا ما بداخلهم وأنَّ يظهروا عكس ما أخفوه.

من خلال العودة إلى هذين المعنيين يتضح لنا أنهما يدخلان في جوهر الفكرة الملامتية، فكما هو معروف بأن الملامتي لايرى لنفسه أي حظ على الإطلاق وأنه لا يطمئن لأي شيء لاعتقاده التام بأن النفس هي شر محض ولا يمكن أنَّ يصدر عنها إلَّا ما وافق طبعها، فهو يقف منها موقف الاتهام والاستهجان وهذا ما يوضح قصدهم بلوم النفس، ناهيك عن ذلك أنَّ الملامتي يرى معاملته مع الله يجب أنَّ تكون سر ولا يجوز أنَّ يطّلع أحد عليه، فهو يحرص على حفظ هذا السر، ونجده أيضاً غيور غيرة المحب على محبوبه فلا يجوز أنَّ يطلع الخلق على هذه الصلة بينهم، فيقوم بإظهار آداب العبودية للخلق ويتحفظ على سره مع الله، ويشير إلى هذا المعنى قول بعضهم: ((الملامتي هو الذي لا يظهر خيراً ولا يضمر شراً)) ((2)).

وضعت الملامتية لنفسها طرقاً خاصة طبقتها في الواقع ما جعلها متميزة عن الصوفيين، فلا مظاهر للعبادة تنمو على وجوههم، فالله في داخل النفس لديهم هو الصفاء والنقاء والتمجيد، بينما تقَربهم من البشر هو فقط من أجل العيش

1- عفيفي، أبو العلا. *الملامتية والصوفية وأهل الفتوّة*، لبنان: بيروت، منشورات الجمل، الطبعة الأولى، 2015، ص 17.

2- المرجع السابق، ص 18.

3- المرجع السابق، ص 18 – 19.

4- المرجع السابق، ص 46.

معهم، بل حتى في تطويع النفس على التخفي عن المحيط، وهذا ما جعل الله يميزهم ويكشف لهم الأسرار بدون باقي البشر لما لهم من مكانة، هذا ما وضحه أبو حفص النيسابوري: ((أهل الملامة قوم قاموا مع الحق تعالى على حفظ أوقاتهم ومراعاة أسرارهم فلاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع القرب والعبادات وأظهروا للخلق قبائح ما هم فيه وكتموا عنهم محاسنهم فلامهم الخلق على ظواهرهم ولاموا أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم)) ([3]).

يعتقد أنَّ الأساس النظري الذي قام عليه المذهب الملامتي هو التشاؤم وذلك من خلال نظرتهم إلى النفس الإنسانية فبنوا عليها مذهباً كاملاً في تذليلها ولومها، من خلال حرمانها من أي عمل أو عبادة ، لأن من المبادئ الأساسية للملامتية أنَّ العالم شر لا خير فيه ، وهو ما صدر عن أبا عثمان الحيري الذي كان تلميذاً لأبي حفص النيسابوري، فقد وافقه في بعض ما ذهب به وخالفه في بعض وربما هنا كان يتفق مع حمدون القصار، أي أنَّ على الملامتي التزام الحزن والكمد ورؤية التقصير في جميع أفعالها، ويلزمه باتهامه نفسه دائماً بذلك التقصير، أي إذا كانت الدنيا شراً محضاً يجب التخلص منه مهما كان هذا الشر، فالزهد فيها أول ما يلزم به المتشائم نفسه، وكان يرى أبا عثمان ((أنَّ الإيمان الكامل لا يتم للرجل حتى يستوي عنده المنع والعطاء والعز والذل، وهذا مقام لا يتحقق إلا لمن زهد في الدنيا زهداً مطلقاً)) ([4]).

ثانياً: صلة الفتوة بالملامتية:

أُطلِق اسم الفتوة على مجموعة من الفضائل أخصها: الكرم والسخاء والمروءة والشجاعة، وفي اللغة: ((فتأ، والفتاء: الشباب. والفتى، والفتية: الشاب والشابة)) ([6])، وجاء ذكرها أيضاً في القرآن الكريم: ((قالوا سَمِعنا فَتًى يَذكُرُهُم يُقالُ لَهُ إِبراهيمُ)) ([2]).

هذه الفضائل تجعل المتصف بها يتميز عن غيره من الناس، حيث أنَّ هذه الصفات لم يتصف بها إلا قلة من الناس في زمن طغت فيه كل مظاهر البذخ والترف، لذلك لا ضير في أنَّ نجد مظاهر الفتوّة قبل الإسلام وبعده وتحديداً في الصدر الأول منه في بلاد العرب وفارس، ويقال إنها تمثلت بشخصية الإمام علي وأهل بيته، وقد كانت هده الفتوّة فردية أي لا وجود لها في جماعة، حتى أنه لم يعرف لأهل الفتوّة نظام اجتماعي إلا في عصر متأخر.

وربما يعود السبب في تسميتهم بالفتوّة لأنهم كانوا أشداء على الظلم والظالمين ، يقول القشيري: ((أنَّ أصل الفتوّة أنَّ يكون العبد أبداً في أمر غيره)) ([3])، يبدو أنَّ هذا الجانب يتقاطع مع الصوفية وتحديداً الملامتية ما يفسر ارتباط الفتوّة بالملامتية ، فجل ما تهتم به الملامتية هو الأخلاق لذلك نراها تستمد من التصوف قيمه وأخلاقياته وتكتفي بذلك، فحسن الأدب هو المدخل الرئيسي لكل العلوم وخاصة العلوم الدينية انطلاقاً من ذلك شددت الملامتية على أداء كل الأفعال المحمودة والتحلي بالفضائل واعتبرت رأس تلك الفضائل الصمت والسكوت عن الجهار بما يقدمه المرء من أفعال الخير لأن ذلك من قبيل الكبر والغرور؛ بمعنى آخر إذا كانت النفس ضعيفة و قد لاقت استحسان من الناس على فعالها الحسنة فربما يصيبها الغرور وتكون أعمالها لا لحب العمل الحسن بحد ذاته بل لحب الظهور والعجب بالنفس وهذا أشد مقتاً عند الملامتية ، واللافت للنظر أنَّ الملامتية لا تكترث برد فعل الآخرين كنتيجة على فعالها

---

[1]- القاشاني، عبد الرزاق. *معجم المصطلحات والإشارات الصوفية*، تحقيق ودراسة: سعيد عبد الفتاح، الطبعة الثالثة، 2007، ج1، ص 194.

2- القرآن الكريم. سورة: الأنبياء، آية: 60.

3- القشيري. *رسالة القشيري*، عني به: أنس محمد عدنان الشرفاوي، لبنان: بيروت، دار المنهاج للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الإصدار الثاني، 2017، ص 506.

الحسنة ولا تنتظر المقابل على الإطلاق بل يكتفي الملامتي بأن يكون أخلاقياً في قوله وفعله وأنَّ لا يثنيه عن فعل الخير والتحلي بالفضائل رد فعل الآخرين أياً كان ولا لأي ظرف يمكن أنَّ يعدله عن حسن الخلق وفعاله بل على العكس يرى في قهر تلك العوائق التي تقف في طريق بلوغ الفضيلة نوعاً من اختبار النفس وأنَّ اجتيازها هو بحد ذاته الجنة التي يريدها الملامتي.

كما أنَّ للفتوّة ارتباط وثيق بالتصوف منذ ظهوره وتحديداً بفرقة الملامتية فقد اصطبغت بصبغته وكان ذلك تحديداً في البلاد الإسلامية ذات الحضارات القديمة ولاسيما بلاد فارس منبع الحضارة، وأنَّ هذا الاتصال أدى إلى وجود حالة من التأثير المتبادل بين الفتوّة والتصوف، فقد تسربت آثاراً كبيرة للفتوّة إلى بيئات الصوفية، وهذا ما أدى إلى وجود صلة متماهية بينهما إلى درجة اندراج الفتوّة تحت غطاء التصوف وادراج الكثير من المفاهيم والأسس الصوفية في عقيدة الفتوّة.

وما يدل على ذلك الاتصال المتبادل بين الفتوّة و الملامتية أنَّ كثير من الفتيان الذين نعرف شيئاً عن تاريخ حياتهم كانوا إما صوفية أو ممن لهم ميل إلى الطريق الصوفي القصة التي تلخص مذهب الملامتية الذي يقوم بالتستر على كل الأفعال المحمودة والمعارف الإلهية وإظهار عكس ما يبطن، ((نقل أنه كان في نيسابور رجل مشهور بالشطارة والعيارة ويسمى نوح، فالتقى به حمدون القصار في بعض الطرق، وقال له: ما الفتوّة؟، قال: أما فتوّتي ففي أنَّ أخلع القباء وألبس مرقعة، وأشرع في التصوف، وأستحيي من الخلق بسبب زيً أهل التصوف، وأحترز عن المعاصي، وفتوّتك في أنَّ تخلع جبة التصوف حتى لا تغترَّ بها ولا تغرَّ بها غيرك)) ((7)). يتضح لنا أنَّ الفتى يجب أنَّ لا يكون صاحب ادعاء وأنَّ انتماءه للصوفية صادر عن إيمان عميق ويقين ثابت بالفكر الصوفي الذي يصل بالإنسان إلى الصفاء وتحقيق الفضيلة والسعادة الأبدية فلن تكون للخرقة الصوفية –وهي رمز صوفي يعبر عن الانتماء والولاء لهذا الفكر– أهمية مالم يقترن القول والفكر بالعمل، فالممارسة العملية لهذا الفكر هي الضامن الأساسي لاستحقاق الصوفي هذه الخرقة والثوب الصوفي الذي يرمز للصفاء والعفة والطهارة.

فقد ظهر أول اتصال بين الفتوّة المنظمة داخل هيئات اجتماعية منظمة وبين متصوفة العراق والذي كان على اتصالٍ وثيقٍ ببلاد فارس ، ((وكان ذلك في دائرة الحسن البصري الذي أطلق غليه أيوب بن أبي تيمية سيد الفتيان)) ((2)) ، وكما هو معروف أنَّ الحسن البصري هو أول من مهد لظهور التصوف في الإسلام ، حيث اعتبره متأخرو الصوفية من الأقطاب ، أي أنَّ التصوف عندما ظهر تجلت فيه مع فضيلة التقوى مجموعة من الفضائل التي استمدت من الفتوّة، فعندما اكتمل نموه في القرنين الثالث والرابع قويت فيه هذه الفكرة الأساسية التي تميزت بها الفتوّة العربية القديمة وهي فكرة الإيثار، واعتبرها الصوفية من أوائل مبادئهم وأضافوا إليها صفات أخرى متصلة بها ككف الأذى ومحاربة النفس.

من الملاحظ أنَّ الصفات التي تدعو الفتوّة إلى التحلي بها تتقاطع مع صفات الملامتية، من حيث أنه على الإنسان أنَّ يتحلى بصفات العابد لربه وأنَّ يجمع أخلاق أولياء الله في نفسه للوصول إلى الله بمعنى أخر أنَّ يتشبه بالأنبياء والأصفياء المنتجين كأن يصير الإنسان يشارك الله في الفعل من خلال مكارم الأخلاق التي يتحلى بها كالحلم والصبر

---

[1]- العطار، فريد الدين. *تذكرة الأولياء*، مصحح: أحمد آرام، ترجمة: محمد الأصيلي الوسطاني الشافعي، تحقيق: محمد أديب الجادر، 2008، ص 416 – 417.

2– عفيفي، أبو العلا. *الملامتية والصوفية وأهل الفتوّة*، ص 28.

3– القرآن الكريم. سورة: المعارج، آية: 21.

والكرم و ... وغيرها من الصفات التي لا تليق إلا بالربوبية لكمالها ولكن قد يصبح الإنسان إذا حقق رتبة كمال الأخلاق شبيه بالله كما الأنبياء والرسل كقوله تعالى في وصف محمد (ص) وإنك لعلى خلق عظيم . لذلك يجب الأخذ بالحسبان أنَّ مثل هده الشروط للصفات البشرية هي صفات شبه مستحيلة، فالإنسان بطبعه متقلب المزاج لاختلاط الأمزجة في تكوينه، فإذا أصابه شراً كان خاشعاً لربه متضرعاً وعابداً له لينقذه، وإذا كان بخير ويعيش هنياً تراه يمتنع عن عبادة الله هذا من جهة أولى، كقوله تعالى: ((إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)) ((3)).

ومن جهة ثانية نفسه الأمارة بالسوء لا تدعه يهنئ فالصراع الدائر بين قوى الخير وقوى الشر تتنازع ساحة النفس بشكل دائم، وبطبيعة الحال أنَّ تجسيد الصفات الإلهية في الإنسان مهما بلغت من الكمال تبقى ناقصة لأنها ناتجة عن كائن ناقص فلا كرم مطلق ولا عدالة مطلقة و ...الخ لكن الملامتية وطائفة الفتوّة على الرغم من إدراكهما لذلك الأمر إلا أنهما تمسكا به وكان لهما شرف المحاولة لأن ما نستصغر من فعل الخير فهو كبير عند الله، فلا تقاس الأمور بمقياس الإنسان الدي يخضع للعواطف والتقلب والظروف المحيطة به، وذلك في قوله تعالى: ((إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)) ((8)).

ولما كان من صفات الصوفية بشكل عام أنها كثيرة الدعاوى مما أدى إلى اعتبار الدعاوى من قبل البعض من مقومات الفتوّة الصوفية، فكان الفتى الصوفي في نظر هؤلاء من كانت له دعوى يدافع عنها ويضحي بنفسه في سبيلها، أما صلة الفتوّة بالملامتية فقد أنكرها هورتن الذي لم يتردد في تقرير الصلة بين الفتوّة والتصوف، مستنداً إلى أنهما فكرتان متعارضتان، وهو يرى ((أنَّ أصحاب الفتوّة يجمعون بين التقوى والشعور بالشرف، في حين أنَّ أهل الملامة رجال يحتقرون الدنياً علناً ويعتبرون لوم النفس وسيلة ضرورية لتوصيلهم إلى الكمال الروحي أو الخلقي)) ((2)).

وإذا كان البعض لا يرى وجود علاقة وثيقة بين الفتوّة والملامتية هذا راجع إلى افتراقهما في نقطة رئيسة ألا وهي أنَّ الملامتية تركز على ضرورة التخفي والتستر بزي اللامبالاة وانعدام المشاركة في المساعي الخيرية العلنية على عكس أصحاب الفتوّة الذين يظهرون فتوتهم في قول الحق والدفاع عن المظالم والمشاركة في الثورات لنصرة العدل والخير، وبالمجمل نرى أنه مهما كانت هناك محاولات لنفي الصلة بين الملامتية والفتوّة إلَّا أننا نتلمس بعض النقاط والتي نستشف من خلالها التوافق والترابط فيما بينهما، وذلك بالتركيز على أخلاقية الإنسان الصوفي والضرورة الواجبة على كل إنسان متصوف لممارسة الفكر الأخلاقي وتجسيده فكراً ووجوداً.

ثالثاً: فلسفة الملامتية في النفس:

يشترك كلاً من الصوفية والملامتية في مفهوم النفس التي هي اللطيفة المودعة في القلب الجسماني، وهي محل الأخلاق المذمومة، بينما تكون الروح هي اللطيفة المودعة في القلب الجسماني أيضاً لكنها محل الأخلاق المحمودة. أما القلب والسر: هما أيضاً مودعتان في ذلك الإنسان، وبالتالي لكل منها وظيفة، فالسر فهو مركز الشهادة والشهود، ((أما السر فهو محل المشاهدة التي ليست لواحدة من القوى السابقة اطلاع عليها)) ((9)) ، فمن الواضح لدينا أنَّ القلب ساحة يتنازعها قوتان متصارعتان الروح من جهة، والنفس من جهة ثانية، حيث أنَّ الروح تجذب الإنسان وتشده

[1]- القرآن الكريم. سورة: يوسف، آية: 53.

2- عفيفي، أبو العلا. *الملامتية والصوفية وأهل الفتوّة*، ص 30.

[1]- عفيفي، أبو العلا. *الملامتية والصوفية وأهل الفتوّة*، ص 54.

إلى عالمها، بمعنى أنَّ الروح مسؤولة عن تقوية الضمير الإنساني وشحذه باستمرار بالمد المعرفي، بينما تحاول النفس أنَّ تتغلب على الروح بفرض شهواتها، وإماتة الضمير وجر المرء إلى الدرك الأسفل، بينما السر يتبدى للإنسان الذي سما بروحه النقية وكانت على استعداد لمشاهدة الأسرار الإلهية اللدنية. حقيقة الأمر أنَّ احتقار النفس ومحاربة شهواتها أمر مشترك بين الملامتية والصوفية، فالنفس عند الصوفية هي مصدر للآثام والشرور، ولزوم محاربتها مبدأ أساسي لدخول طريق القوم والترقي في الأحوال والمقامات، وصولاً إلى الفناء والاتحاد بالذات الإلهية، فالوصال هي كل ما يشغل بال الصوفي بينما الملامتية لا تكترث بالوصال لكن الملامتية هنا تفترق عن الصوفية في أنها جعلت غايتها النفس بمعنى الوصول بالإنسان إلى الكمال الخلقي بما يزخر من قيم وفضائل ومعارف بالطريقة التي تضمن له الارتقاء لمستوى الروح والتدرج فيما بعد إلى مرتبة السر حيث انكشاف قدس الحق وأسراره، وذلك في قوله تعالى: ((مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ)) (([10])). فلم تهتم الملامتية بالفناء ولا حتى الاتحاد وتحقيق الوصال، حيث نجد أنَّ الملامتية قد أصلت لمفهوم الإنسان الأخلاقي ودوره في نشر الفضائل، وبالتالي حيازة مقام القرب من الله وهذا لايكون إلا لمن صدق الله في قوله وفعله، وكان فعله من الله وإلى الله وبالله مخلصاً نقياً. ولابد من الإشارة إلى أنَّ الملامتية عندما وضعوا هذه الأذكار كان لديهم معرفة تامة بما يقابل كل منها آفة، ((ولكل واحد من هذه الأذكار عندهم آفة)) (([11]))، فذكر الروح عندما تصل إلى مقام المشاهدة تذكر ذاتها، في حين أنَّ ذكر السر هو ذكر للصفات في مقام الهيبة، وفي مقام المعرفة يكون ذكر القلب أي ذكر الصفات المعبر عنها بالآلاء والنعماء، في حين أنَّ ذكر النفس هو ذكر اللسان، فإذا حدث وأطلع السر على ما ذكرته الروح تفسد المشاهدة، لأن في معتقدهم المشاهدة الصادقة تستوجب نوعاً من الفناء في الله، ونجد في المقابل إذا أطلع كل ذكر من هذه الأذكار أدى إلى إفساد الذكر الآخر، لأن في نظرهم مقام القرب من الله هو مقام هيبة وجلال ، ومقام ذكر الآلاء هو مقام البعد عنه، فيكون المراد بذكر النفس هو ذكر اللسان طلباً للثواب والعوض وهو في الدرك الأسفل من درجات الذكر لديهم، فإذا حدث واختلط بذكر القلب أفسده وأبطله، لأنه يحول دون رؤية آلاء الله ونعمه التي يمن بها على العبد دون مقابل أو عوض، لذلك نجد أنَّ كل من هذه القوى منفصلة عن بعضها البعض ولكل منها وظيفتها الخاصة تؤديها ولا يجوز لواحدة منها التدخل في عمل القوة الأخرى، بمعنى أنها تسير وفق ما رُسِم لها وفقاً لاستعدادها المجبول في طبيعتها.

الاستنتاجات والتوصيات:

هذه أهم النتائج والتوصيات التي توصلت لها بهذا البحث:

لقد كان لوم النفس من المواضيع الهامة في الفكر الصوفي الملامتي، إذ به يستطيع الملامتي الوصول إلى المقصد النهائي وهو الله تعالى و أنَّ الملامتية شكلت وجهة نظر عميقة لفهم معنى الزهد والإخلاص والعبودية تجاه الله بشكل خالص بعيداً عن النفس الشهوانية هذا من جهة أولى غير أنها اعتمدت طريقة سلبية في الإفراط بإذلال النفس ولومها من جهة ثانية، كما أوقعت الملامتية نفسها في تناقض ومفارقة واضحة من حيث غايتها ومسلكها الذي يعتمد على تحييد النفس وإنكارها بشكل تام بينما يعتمد هدفها في تحقيق إنسانية الإنسان على الاعتراف بالنفس الإنسانية، فلا يمكن الارتقاء بشيء لا نعترف به أصلاً. باعتقادنا أنه ليس هناك مبرر أنَّ تلجأ الملامتية إلى التستر على كل ما تقوم به طالما كانت أفعالها تصب في البوتقة الأخلاقية، كما لا يمكن النظر إلى الملامتية كمذهب قائم بذاته بقدر ماهي

[2]–القرآن الكريم. سورة: النساء، آية: 79.

[3]– السهروردي. *عوارف المعارف*، ص87.

أفكار حاولت فهم الحياة والدين كطريقة للتقرب من الله، وهذا ما يفسر تحفظهم وعدم نشرهم لتلك الأفكار بشكل علني لحماية فرقتهم.

المصادر والمراجع:

1-المصادر باللغة العربية:

1- القرآن الكريم.

2- عفيفي، أبو العلا. *الملامتية والصوفية وأهل الفتوّة*، لبنان: بيروت، منشورات الجمل، الطبعة الأولى، 2015، عدد145.

3- التفتازاني، أبو الوفا الغنيمي. *مدخل إلى التصوف الإسلامي*، مصر: القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، 1976، عدد346.

4- السهروردي. *عوارف المعارف*، تحقيق وضبط: أحمد عبد الرحيم السايح وتوفيق علي وهبة، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، 2006، م1، عدد302.

5- الطوسي، السراج. *اللمع*، تحقيق: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى ببغداد، 1960، عدد646.

6- العطار، فريد الدين. *تذكرة الأولياء*، مصحح: أحمد آرام، ترجمة: محمد الأصيلي الوسطاني الشافعي، تحقيق: محمد أديب الجادر، 2008، عدد954.

7- القشيري. *رسالة القشيري*، عني به: أنس محمد عدنان الشرفاوي، لبنان: بيروت، دار المنهاج للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الإصدار الثاني، 2017، عدد991.

8- الهجويري. *كشف المحجوب*، دراسة وترجمة وتعليق: إسعاد عبد الهادي قنديل، مراجعة وتقديم: بديع جمعة، مصر: القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2007، ج1، عدد402.

3-المعاجم والموسوعات:

1- القاشاني، عبد الرزاق. *معجم المصطلحات والإشارات الصوفية*، دراسة وتحقيق: سعيد عبد الفتاح، الهيئة المصرية العامة للكتب، الطبعة الثالثة، 2007، ج2، عدد697.

2- القاشاني، عبد الرزاق. *معجم اصطلاحات الصوفية*، تحقيق وتقديم وتعليق: عبد العال شاهين، دار المناد للطبع والنشر والتوزيع، 1992، عدد440

Sources and references:

1- The Holy Qur'an.

2- Afifi, Abu Al-Ela. Al-Malamatiyyah, Sufism, and the People of Fatwa, Lebanon: Beirut, Al-Jamal Publications, first edition, 2015, No. 145.

3- Al-Taftazani, Abu Al-Wafa Al-Ghunaimi. Introduction to Islamic Sufism, Egypt: Cairo, Dar Al-Thaqafa for Printing and Publishing, 1976, No. 364.

4- Al-Suhrawardi. Awarif Al-Ma'arif, verified and edited by: Ahmed Abdel Rahim Al-Sayeh and Tawfiq Ali Wahba, publisher: Religious Culture Library, first edition, 2006, vol. 1, no. 302.

5- Al-Tusi, Al-Sarraj. Al-Lam', edited by: Abdel Halim Mahmoud and Taha Abdel Baqi Surur, Modern Book House in Egypt and Al-Muthanna Library in Baghdad, 1960, No. 646.

6-Al-Attar, Farid Al-Din. Tadhkirat al-Awliya', edited by: Ahmad Aram, translated by: Muhammad al-Asili al-Wastani al-Shafi'i, edited by: Muhammad Adeeb al-Jadir, 2008, No. 954.
7-Al-Qushayri. Al-Qushayri's message, about him: Anas Muhammad Adnan Al-Sharafawi, Lebanon: Beirut, Dar Al-Minhaj for Publishing and Distribution, first edition, second edition, 2017, No. 991.
8-Al-Hajwiri. Kashf al-Mahjoub, study, translation and commentary: Issaad Abdel Hadi Qandil, review and presentation: Badie Gomaa, Egypt: Cairo, Supreme Council of Culture, 2007, Part 1, No. 402.

Dictionaries and Encyclopedias:

1- Al-Qashani, Abdul Razzaq. Dictionary of Sufi terms and references, study and investigation: Saeed Abdel Fattah, Egyptian General Book Authority, third edition, 2007, vol. 2, no. 697.
2-Al-Qashani, Abdul Razzaq. A Dictionary of Sufi Terms, edited, presented and commented by: Abdel-Al Shaheen, Dar Al-Manad for Printing, Publishing and Distribution, 1992, No. 44